

من معاني حذف المسند إليه في بناء الخطاب

أ. سليمان كريمة

أ. سليمان لحسن

جامعة طاهري محمد بشار

الملخص:

العربية ثنائية المعنى، فكل جملها مكونة من مسند و مسند إليه، مهما تحدد دلالة الجملة، و بمجموع الجمل تحدد دلالة النص أي الخطاب، و هاتان الدعامتان المكونتان لمعاني الجمل تتعرضان للحذف لبناء معانٍ أخرى غير التي كانت في الثبوت. فحذف أحد ركني الجملة يعطي دلالة جديدة بناء على الحذف، فالحذف إذن أعطى دلالة لم تكن موجودة في الثبوت، و كأنما هي تعبير آخر جديد على الرغم من كون الحذف ينطلق معناه بناء على ما هو موجود في الثبوت، يبدأ معنى الحذف حيث تنتهي دلالة الثبوت. يأخذ الحذف الثبوت قاعدة لبناء معانٍ جديدة، و لكون العربية من خواصها الاختصار و الاقتصار فهي أميل لتوظيف الحذف إذن لبلوغ الإبانة و البلاغة، فمتى بلغت المعنى فقد بلغت و فصحت و أبنت أي كنت بليغا و فصيحاً و ذا بيان في التعبير. و قد وظف القرآن هذا الأسلوب لإيصال المعاني المراد بلوغها بأقرب سبيل، كما وظفها الحديث الشريف و الشعر و الشر.

الكلمات المفتاحية: اللغة، مسند، مسند إليه، الخطاب، الدلالة، الجملة، الكلمة، التركيب، الثبوت، حذف المسند، حذف المسند إليه، حذف الدلالة، تغير المعنى، وجوب، جواز، البيان، البلاغة، الفصاحة، بؤرة، قراءة، تأويل، مدلول، فائدة، معتمد الفائدة، محل الفائدة.

Abstract:

In Arabic language (tongue), the structure of the sentence Consists of a theme and a predicate. These two Elements give a Meaning to the sentence just like all the sentences builds the semantic aspects of the text to be known about the speech in a general way. Nevertheless, the appearance of a semantic sentence can undergo significant variations selon the abolition (deletion) of one of the two syntagms constitute the award.

Of the abolition of one of the two constituents of the sentence ensues a new meaning of the context. For that purpose, we can say that the operation of syntactic abolition of one of the elements of the sentence is creative of new semantic interpretations (performances) just like if it is about a new statement. Given taht the conciseness and the reduction of the term.

العربية ثنائية المعنى ثلاثية المبنى، أي أنّها مؤلفة من مسند و مسند إليه من حيث المعنى، و من جهة التركيب مكونة من ثلاثة أحرف؛ حرف

بداية، و ثانٍ حشو، و ثالث حامل لعلامات الإعراب أو البناء، وهي التي اصطلاح على تعريفها صرفياً بفاء أو عين أو لام الكلمة. فالجملة تنشأ

من معتمد الفائدة ومحملها، فتركيبهما تحصل الفائدة، وتتألف الجمل، سواء أكانت صغرى أو كبرى.

المسند إليه من أكثر المحذوفات وقوعاً في التصوص الأدبية والنثرية، سواء أكان فاعلاً أو مبتدأ، و حذفه وُاردٌ في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر والنثر، وأغلب تلك المحذوفات، لها غاية، وتبني معاني لا تكون، بأقصر أسلوب، وأوضح بيان إلا بالحذف، وتتم قراءتها وبيان مدلولها، اعتماداً على العلوم اللغوية، بؤرة المقال المراد تقديمه، وما تقذفه هذه من معاني، يتم تحديدها بواسطة الحذف، والتأمل، وتحكيم الذوق، والسياق الذي وردت فيه، ومنها ما يُفهم بواسطة الخطاب، أو حال قائل النص، والظروف المحيطة به، كل هذه العوامل تتدخل في تحديد المدلول، وفي تعريف المحذوف.

والحذف على ضربين: إما حذف المبتدأ؛ لبناء معاني منها: قال صاحب المفصل: (ويجوز حذف أحدهما فمن حذف المبتدأ ... قال الشارح: اعلم أن المبتدأ والخبر جملة مفيدة تحصل الفائدة بمجموعهما، فالمبتدأ معتمد الفائدة والخبر محل الفائدة، فلا بدّ منهما إلا أنه قد توجد قرينة لفظية أو حالة تُغني عن النطق بأحدهما فيحذف لدلالاتها عليه، لأنّ الألفاظ إنما جيء بها للدلالة على المعنى، فإذا فهم المعنى بدون لفظ جاز أن لا تأتي به، ويكون مراداً فكراً وتقديراً، وقد جاء ذلك مجيئاً صالحاً فحذفوا المبتدأ مرّة والخبر أخرى)¹

و من هذا الحذف الوارد في القرآن، لبناء معاني، خُصَّ الحذف لبنائها، الذي جاء فيه فُهم المعنى دون ذكر معتمد الفائدة، لربط المعنى السابق باللاحق وتقدير المحذوف بـ يُستَشَفُّ من خطاب، ويدلُّ عليه سابقه، أو ما اكتنفه، وفي هذا المعنى جاءت الآية في قوله تعالى { صُمُّ بُكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ }²، فالجمهور على رفع "صم" على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوف؛ أي: هم صُمُّ،³ صُمُّ: التقدير، هم صُمُّ، هم بكُم، هم عُمِيٌّ⁴ وهو تشبيه بليغ، حذفت فيه الأداة ووجه الشبه.⁵

و قد ذكر الزركشي أنّ الغاية من هذا الحذف هي: (صيانة اللسان عنه تحقيراً له)⁶، إذ أنّ في بعض السياقات العربية ذكر الاسم يكون ضرباً من المدح، فحذفه دلٌّ على حذف ذلك الثناء، فضلاً عن ذلك أن حذف المبتدأ هو لتعجيل مساءلة الكافرين، وزيادة تبكيتهم من جانب،

¹ شرح المفصل موفق الدين ابن يعيش النحوي (ت 643 هـ) مطبعة عالم الكتب بيروت ج 94/1.

² سورة البقرة الآية 18

³ إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن أبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (538 - 616 هـ) دار: الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1 1399 هـ - 1979 م ج 24/1.

⁴ صفوة التفاسير محمد علي الصابوني دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع بيروت ط 1 1995

⁵ صفوة التفاسير محمد علي الصابوني دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع بيروت ط 1 1995 ج 34/1

⁶ صفوة التفاسير نفسه ج 34/1

⁶ البرهان في علوم القرآن أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بھادر الزركشي (ت 794 هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعرفة بيروت 1391 هـ ج 122/1

ومن جانب آخر اغتنام فرصة إقبال المخاطبين و السامعين من المؤمنين من أجل تقرير صفات الكافرين وبيانها لهم؛ ليكونوا أبعد عما يؤدي بهم إليها، فقد جاء هذا الحذف في سياق قرآني عجيب، فقد ورد الحذف ردفا للمعنى المقصود حين قال سبحانه وتعالى: { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ }⁷ فلو ذكر المبتدأ "هم" لأوحى ذلك إلى متلقي الخطاب بداية جملة جديدة، وألقي في نفسه التهيؤ للانتقال إلى مشهدٍ آخر، وبذلك يقع شيء من الانفصام، والانفصال في المعنى المقصود، و لن يكون في الجملة من تأثير في النفس ما يتركه تتابع المعنى وتكثيفها في ذهنه إلا بهذا الحذف بأقصر عبارة وأجزل لفظ..

"صم بكم عمي": هي في الأصل ثلاث تشبيهات بليغة، وفي اللغة أنها ثلاث جمل، أو جملة متعدد الخبر، وليست نعوتاً لأن النعت ضرب من التعريف، فكلٌّ منها خبر لمبتدأ محذوف. والتقدير: "هم صم، هم بكم، هم عمي"، والتشبيه البليغ في العربية، هو تشبيه حذف فيه الأداة ووجه الشبه، وهو ضربٌ من أضرب التعبير، لم يبق فيه إلا المشبه والمشبه به من جهة البلاغة أي المسند والمُسند إليه من جهة اللغة، لكن الله عزّز قدرته في هذا التعبير القرآني حذف المسند إليه مع أنه ليس استعارة، لقبول تقدير المحذوف ذاته، وهو الذي يمثل المشبه، والتقدير هم بكم، هم صم، هم عمي.⁸

و الحذف في مثل هذا، واجب لإدراك المعنى المقصود الوارد في التركيب لبناء معاني لا تتم إلا به، بأقصر أسلوب، وأجزل صيغة، ومَنْ أَفْصَحُ من الله قِيلاً؟ لبلوغ المعنى في دفعة واحدة دون انقطاع، لما للجمل من تكامل في المعنى بهذا الحذف، فعبّر بثلاثة ألفاظ عن ثلاث جمل، بل بثلاث تشبيهات بليغة، وهذا بغرض أخذ المعنى في دفعة واحدة لتكتمل الصورة في ذهن متلقي الخطاب، وهذا الترابط جعل متلقي الخطاب يأخذ المعنى في دفعة واحدة دون انكسار الذي يحدث حتما لو تمّ التعبير بثلاث جمل مستوفية الأركان، لكلٍّ منها استقلالية بناءً في تركيب الدلالة.⁹

ألم تر أن حذف المسند إليه أدى معاني غير واردة بالثبوت؟ لكون مدلول الجملة انطلق من حيث انتهى تحصيل الفائدة، ثم زاد عليها معاني كانت نتيجة حذف المبتدأ، ثم حذف أداة التشبيه ووجه الشبه، فكأن تركيب الصيغة قد تعرض لثلاثة أنواع من الحذف الوارد في التركيب هي:

أ- حذف أداة التشبيه.

ب- حذف وجه الشبه.

⁷ سورة البقرة الآية 17

⁸ صفوة التفاسير نفسه ج 34/1

⁹ إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن نفسه ج 21/1.

ج- حذف المبتدأ.

و لكل حذف خصائص في بناء الخطاب، يقرأ ذلك في علة حذف المحذوف، وما يترتب عليه من معانٍ في التركيب. وما يعرف أنّ كلّ حذفٍ بيّني دلالة، ولا يحذف إلّا بعلّة، أدركنا أن هذه الألفاظ الثلاثة: "صَمَّ بَكْمَ عَمِيَّ" هي في الأصل ثلاث جمل مستوفية الأركان لو قُدِّرَ المحذوف، كلّ منها يمثّل تشبيهاً بليغاً، حذفت فيه الأداة ووجه الشبه.

و من صنف هذا الحذف لبناء معنى آخر شبيهه بسابقه قوله تعالى: { بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }¹⁰ أي : هو بديع.¹¹

ما من حذف ورد في القرآن إلا ويحمل دلالة، وثبوته يحمل أخرى، إلى درجة أن أي حرف لا يحذف إلّا بعلّة ولبناء معنى، سواء أكان ذلك الحرف؛ حرف معنى أو المبنى، أو مسند أو مسند إليه أو فضلة.

إنّ ثبوتهما دالٌّ على معنى، وحذفهما كذلك يدل على معنى آخر غير الذي كان مقصوداً في الثبوت، ينطلق المعنى من حيث ثبوت المحذوف ليبني دلالة أخرى بواسطة الحذف أشدّ دقة، وأكثر تركيزاً، وأبلغ فصاحة، ولا يتم هذا المعنى بأقصر عبارة، وأبلغ أسلوب إلّا بالحذف، لكون العربية تُبْنَى على الاختصار، فمتى أوصلت المعنى بأقصر عبارة فقد أبنت، هذا ما يقصد بلزوم تصدير المغيّر الدال.^{12 13}

و يظهر أن حذف المبتدأ أي مسند إليه، وهو أحد ركني الجملة في الخطاب القرآني، جاء ليغتنم فرصة إقبال السامع من أجل أن يُقرَّر في نفسه صفات الله تعالى ويرسخ في قلبه لتتزيهه سبحانه عن كلّ ما لا يليق به؛ فقد قال عزّ وجلّ قبل هذه الآية: { وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُتُونَ } فالمقام مقام الردّ على مَنْ زعم أنّ الله . سبحانه . قد اتَّخَذَ وَلَدًا، وقد ردّت الآية ذلك القول الشنيع وفندته، وذكرت أنّه سبحانه له ما في السموات وما في الأرض، وهذه طريقة من طرائق التفنيد التي تجذب السامع ذهنياً ونفسياً، ثم اغتنمت فرصة ذلك الإقبال من أجل زيادة هذا المعنى بإلقاء خبر آخر، دون ابتداء، لتركيز المعنى وتقديره في نفس المخاطب، وكلّ هذه المعاني تُدرّك بالحذف، إذ لولاه ما كان ليكون بهذه الطريقة المختصرة المقتضبة الدالة على التركيز، إذ بالحذف من حيث كونه هو ذاته أسلوب من أساليب التعبير، الموصل للمعنى بأقصر أسلوب وأجزل عبارة، علّمنا إياه القرآن.

¹⁰ سورة البقرة الآية 117.

¹¹ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود محمد محيي الدين بن محمد بن مصطفى العمادي (ت 982هـ) دار إحياء التراث العربي - بيروت ج 15/1.

¹² البرهان في وجوه البيان أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن وهب الكاتب ، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي ، مطبعة المعاني ، بغداد 1378 هـ - 1967م ج 203/1.

¹³ هكذا تكلم النص محمد بن عبد المطلب مطبعة دار الكتب العلمية ط 1 ص 227.

و لعلَّ ممَّا هُوَ أَظْهَرُ، وأشدُّ بيانا في التماس المعنى عن طريق الحذف يصبُّ قوله تعالى: {عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} ¹⁴ فهو على تقدير مبتدأ محذوف؛ أي هو عالم. فإنه لما قال تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْذَاذُ} ¹⁵

فقد ألقى للمخاطب جملة متكاملة الأجزاء ذكر فيها انتهاء عالم الغيبيات لله سبحانه، ثم اغتنم فرصة إقبال المخاطب من أجل ترسيخ الإيمان في قلبه بالصفات الأخرى، فأتاه بجملة، وكأَنَّهَا تابعة لسابقتها، فهما متلاحمتان لبناء معنى مشترك، له علاقة مباشرة بالمعنى اللاحق لذا جيء بجملة محذوفة مبتدأ قائلاً: "عالم الغيب" ولو أنه صرَّح بذكر المبتدأ لجعل المتلقي يظنُّ أنه سينتقل إلى معنى جديد. لكون المعنى يبنى وجوباً على المسند والمسند إليه. وبذلك يضعف إقباله نوعاً ما، ولكنه حين أسرع بإلقاء الخبر، اغتنم فرصة الإقبال التام عنده، وكان فيها المخاطب مهيناً، لما وصل إليه بالآية الأولى، فلعلَّ من أجل هذه العلة حُذِفَ معتمد الفائدة، وهو في هذا الجانب، كما يقال: الطَّرُقُ على الحديد الساخن قبل أن يبرد. و من ذلك الحذف في بداية السورة في قوله تعالى: {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ¹⁶ أي هذه براءة. ¹⁷

فالباحث يرى أن من علل حذف المبتدأ في صدر هذه السورة لبناء المعاني منها:

أولها: إنّ هذه السورة نزلت في حال الغضب الإلهي، وفي هذه الحال يُخْتَصَرُ الكلام، ويحذف منه ما لا يُحْدَفُ في غيره، وذلك يسهم في إشعار المخاطب والمتلقي بمدى الغضب الإلهي الذي حصل آنذاك.

و ثانيها: إنّ في حذف المبتدأ إيجاد بوجوب سرعة البراءة من المشركين دون ابتداء، ودون أي تمهيد، وذلك تقريع وتوبيخ، وهو ضرب من أضرب الوعيد عن طريق الحذف، إذ الحذف أدّى معنى لم يؤدّ بالإطناب والإطالة، وهو أسلوب من أساليب التعبير المقتضب عن طريق الحذف.

و ثالثها: إنّّه أراد إلقاء الخبر من أقصر طريق، إلى درجة أن هذه السورة لا تفتتح بـ "بسم الله الرحمن الرحيم"؛ لأن البراءة لا تتناسب مع ذكر الرحمن الرحيم. ¹⁸ ثم إن المتلقي حين يقرع مسامعهُ خبرٌ قويٌّ دون تمهيد أو ابتداء، فإن ذلك يثير في نفسه تساؤلات كثيرة، وتذهب نفسه كلّ مذهبٍ في تفسيرٍ ما يُرَادُ، وكلُّ هذه المعاني ما كان لها أن تكون إلّا بواسطة الحذف الذي أدّى معنى، لم تُؤدِّ بالثبوت.

¹⁴ سورة الرعد الآية 9.

¹⁵ سورة الرعد الآية 8.

¹⁶ سورة التوبة الآية 1.

¹⁷ التسهيل لعلوم التنزيل محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي (ت 471هـ) دار الكتاب العربي بيروت ط 4 - 1403هـ - 1983م ج 2/70

¹⁸ التسهيل لعلوم التنزيل نفسه ج 2/70

و لعلّ أبرز نتيجة لإلقاء ذلك الخبر دون ابتداء، هي أن كثيرا من العلماء سمو تلك السورة بـ " سورة براءة " لارتباطها في الأذهان مع ذكر التَّبَرِّي من المشركين، ليكون ذلك تقريرا لهم وشفاء للمؤمنين.¹⁹ ومنه قوله تعالى: { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }²⁰

و عليه فلعلني لا أبعد عن الصواب إن زعمت أنّه لما نزلت هذه الآية، وسمعتها من سمعها فإنّها أثارت تساؤلا في نفس السامع عن صفة هؤلاء الذين لا يُخشَى عليهم من شيء، ولا يصيبهم الحزن، فأتاهم الجواب سريعا بأنهم: { الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ }²¹

و لنعرف الغاية البلاغية لهذا الحذف لا بدّ أن نعرف السياق الذي قيلت فيه، ولندنو أكثر من علة الحذف لا بد أن نتلو الآية التي تسبقها مباشرة، وهي قوله تعالى: { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }²² ، فلما أتاهم الجواب السريع، فأحدث ذلك لذّة في النفس بسبب سرعة معرفة الجواب، دون انتظار، لأن المتشوق يتعبه الانتظار، وبقدر ما كان الجواب أسرع، كان أريح للنفس، وخالق النفس أعرف من غيره بها، وكأن الآية لم تأت لإثبات الصفة لهم، لأن الثناء مرّ عليهم بوصفهم أولياء الله، ولكنّها أرادت تعليم السامع صفتهم، بأشدّ طرائق اختصارا، وأبلغها بيانا، والحذف أوفى تعبيراً وأكثر دقة من غيره لبلوغ هذا المعنى، فالحذف إذن بنى معنًى لاحقاً انطلاقاً من معنًى سابق، ما كان ليكون بهذا الاختصار المرادف لمعنى دون تكرار، وليس المعنى ذاته، وبطريقة مختصرة موحية موصلة للمعنى المراد بلوغه، انطلاقاً من المعنى ذاته، ومبنياً عليه، فلعلّ هذه من موجبات حذف المبتدأ لبلوغ هذا المعنى الدقيق والحاسم.

و لعلّ من ضرب هذا المعنى يقع حذف المبتدأ في قوله تعالى: { وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ، النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا }²³ فهاتان الآيتان من جملة آيات تصف حال آل فرعون، فذكرت الآيتان عاقبته وعاقبتهم، ولعلّ السامع حين يسمع قوله تعالى، وحقّ بآل فرعون سوء العذاب يتساءل ما هو سوء العذاب؟ أهو الغرق في اليم؟ أم غير ذلك؟ فيأتيه الجواب القارح بحذف الابتداء، دون تمهيد، وبكلمة وحيدة كأنها رصاصة صادعة، دون تمهيد أو تأجيل: " النَّارُ " فيكون ذلك بمثابة صدمة نفسية قوية مشعرة بتمام قوّة العذاب، وذلك أقوى في ردع النفس وكبحها وتحذيرها، وكل هذا ما كان ليوصل إليه بأقرب أسلوب وأجزل عبارة، ولو لم يوظف الحذف، فالحذف إذن أعطى دلالة ما كان لتؤدى

¹⁹ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم نفسه ج4/159.

²⁰ سورة يونس الآية 62.

²¹ سورة يونس الآية 63.

²² سورة يونس الآية 62.

²³ سورة غافر آية 45.

بدونه، فهو أذن أسلوب من أساليب التعبير بطريقة مقتضبة موصلة للمعنى بطريقة مختصرة، وبيان العبرة مركز ومرتكز على الحذف حدّد الصبغة المحذوفة دون تأويل لتبني المعنى بأقصر لفظ موج.

و من هذا الضرب قوله تعالى: { إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ، خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ }²⁴ فخافضة: خبر مبتدأ محذوف؛ هي خافضة²⁵ ولو أعريت: صفة أي نعت لتغير المدلول وليس هذا المقصود بالآية، والإعراب تحت المعنى.

و يرى الباحث أنّ المبتدأ حذف لبناء معانٍ منها:

- إن الساعة في حالي الخفض والرفع تفاجئ وتفجع الناس، وهو ضرب من أضرب الوعيد، لأن الله يريد أن يعيش خلقه بين وعدٍ ووعدٍ، فهناك من الناس من يزجره الوعيد فيعود إلى جادته، وطائفة أخرى تُجذب إليها بالوعد.

- إنّ الكلام عن الساعة تشدُّ إليه الأذهان فلا يمكن أن ينصرفَ الذهن إلى غيرها، طالما أن الحذف يعطي القارئ التأمل في المعنى ليعرف المدلول، وهذا يستوجب التركيز لمعرفة المقصود، وكلّ ذلك أوصل الحذف.

- إن استعمال كلمتين للدلالة على حالتين متناقضتين تماماً، ينقل إلى المتلقي حالة اضطراب سريع حاصل عند قيام الساعة، وكل ذلك ما كان ليؤدّي بلفظ واحد، لولا الحذف الذي أعطى المعنى المقصود بكلمة واحدة بل وحيدة، فالحذف تعبير آخر يوصل للمعنى المقصود المراد بلوغه.

ومن معاني حذف المسند، يتجلى ذلك في قوله تعالى: { ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَى، وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ }²⁶ ؛ أي هم ثُلَّةٌ.²⁷

ولمعرفة دلالة الحذف لا بد من تقسي ذلك في أسباب النزول من حيث كونها مادةً مسعفةً لبلوغ المعنى المراد بلوغه، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه)

قال لما نزلت { ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَى، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ }²⁸ شَقَّ ذلك على المسلمين، فنزلت الآية: { ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَى، وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ }²⁹

فلعلّ المقصود بهذا الحذف تعجيل المسرة للمسلمين، وتطبيب خواطرهم، وتهذئة نفوسهم.³⁰

²⁴ سورة الواقعة الآيات 1-3.

²⁵ أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت 745هـ) دار الفكر ط1 ص 223.

²⁶ سورة الواقعة الآيات 39-40.

²⁷ مشكل إعراب القرآن مكي بن أبي طالب القسي/711

²⁸ سورة الواقعة الآيات 13-14.

²⁹ سورة الواقعة الآيات 39-40.

- ومن جهة الإعراب في بناء الجمل، لا يمكن أن تعرب كلمة ثلّة مبتدأ على الرغم من جواز الابتداء بالنكرة، إذ المعنى غير مستوفٍ من التركيب، لذا فهي وجوبا خبر لمبتدأ محذوف، لأن بهذا التقدير يستوفى المعنى وتدرك دلالة الصيغة.

- ومما ورد في الشعر من هذا الضرب قول الشاعر الأقيشر في ابن عمّ له موسر، سأله فمنعه قائلاً له: كيف أعطيك مالي وأنت لا يعينك؟ فتركه حتى اجتمع القوم في ناديه، وهو فيهم، فشكاه إلى القوم، فوثب إليه ابن عمّه فلطمه، فأنشد يقول:

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ يَلْطُمُ وَجْهَهُ وَلَيْسَ إِلَى دَاعِيِ النَّدَى بِسَرِيعٍ

حَرِصٌ عَلَى الدُّنْيَا مُضَيِّعٌ لِدِينِهِ وَلَيْسَ لِمَا فِي بَيْتِهِ بِمُضَيِّعٍ

أي: هو سريع، وهو حريص، وقد ذكر القزويني أنه حذف المبتدأ هنا: (لاعتبار مناسب لا يهدي إلى مثله إلى العقل السليم والطبع المستقيم)

ويبدو لي أن التقسيم والتأخير يحمل دلالة إضافية، فالحذف أعطى معنى، والتقدم أضاف معنى آخر، فحذف المبتدأ في كلا البيتين جعل لكلٍ منهما جمالية فنية تظهر من خلال تأمل كلمة الصدر، وآخر كلمة من العجز، ففي البيت الأول لو تأملنا كلمتي: " سريع ... بسرّيع. " لرأينا أن الشاعر قد رسم صورة حية شبيهة بتشبيه التمثيلي بتوظيفه فقط للكلمتين، وموضعهما في الخطاب، فأثر وضعهما تأثيراً بليغاً في المعنى، راسماً مهجوةً بصورة حية حتى كأننا نراه مسرعاً إلى لطم ابن عمه؛ لأن كلمة "سرّيع" جاءت في أول البيت، وهي بؤرة المعنى المراد بلوغه. وفي العجز أَرَأنا صورة أخرى لمنعه، وفراره بسرعة ممن يطلب نداءً حتى جعل لفظ "بسرّيع" آخر البيت حتى نرى طالب الحاجة منه كأنه يتطلّبه، ويسعى إليه، لكن المهجو لا يعيره اهتماماً فآزاً منه بسرعة، تاركه وراءه، فكأنّ المعنى السابق صار ملاحقاً له على شكل ما ينبعث من لفظ " سريع " على شكل صدا.

وبالمقياس اللغوي نفسه، وعلى ضرب تكرار اللفظ، ففي البيت الثاني أيضاً، وعلى المنوال اللغوي عينه، فقد وظّف الشاعر لفظ " حريص " أول البيت الثاني للإشارة إلى حركة ذلك المهجو، وتمسّكه بماله بشدّة، جاعلاً كلمة مضيع آخر البيت بعد قوله لما في بيته؛ ليصوّر لنا بذلك المهجو أمواله خلف ظهره، ومنافحته عنها.

ومن حذف المسند إليه لبناء معانٍ قصراً وحصرًا الحذف قول الشاعر جميل بثينة:

³⁰ لباب النقول في أسباب النزول جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911)، دار إحياء العلوم بيروت. ط 3 140 هـ ص 203

وَهَلْ بُثِّنَةُ يَاللَّاسِ قَاضِيَتِي دِينِي وَفَاعِلٌ خَيْرًا فَأَجَازِيهَا
تَرْتُو بِعَيْنِي مَهَاةً أَقْصَدْتُ بِهَا قَلْبِي عَشِيَّةً تَرْمِينِي وَأَرْمِيهَا
هَيْفَاءَ مُقْبِلَةً عَجَزَاءَ مُدْبِرَةً رِيًّا الْعِظَامَ بِلَدِّ الْعَيْشِ غَاذِيهَا

أي: هي هيفاء، ولعل لهذا الحذف فائدتين:

- أولى: المسارعة إلى رسم صورة كاملة للمحبوبة، بأقل عدد من الكلمات، طالما أنها أمامه بمشهدها، فهو لا يحتاج إلى أن يُعرَفَ بها.

- ثانية: إنَّ الشاعر حين قال: " ترنو بعيني مهاة " كأنه استحضر صورة المحبوبة، فهي شاخصة أمامه، فهو لا يرى إلا هي، وكلُّ ما هو موجود أمامه لا يعيره اهتمام، فهو لبي في مجال رؤيته، مما يعني أنه انتقل إلى حالة الوصف عن طريق المشاهدة العينية الحية، وليس هناك من أحد أمامه إلا هي، إذ ليس هناك غيرها، فلا تُرى الأشياء، وكأنه لرؤيتها عمى، أحجبت صورتها كل ما هو أمامه، وهذا لا يفسر إلا بالحذف الذي أعطى مجالاً واسعاً.

وفي المجال نفسه يصبُّ قول الشاعر كثير عزّة:

هَجَانُ اللَّوْنِ، وَاضِحَةُ الْمَحْيَا قَطِيعُ الصَّوْتِ آنَسَ كَسُولُ

أي: هي: هجان. وقد حاول أحد الباحثين المعاصرين بيان جمالية هذا الحذف، ومراميه بقوله: (حذف المسند إليه "هي" وأبقى المسند " هجان اللون "؛ لأن لفظ المسند يحمل صفات الحبيبة، فهو يعددها ويظهرها بقصد إبراز صفات حبيبة عزّة؛ لأنها تحمل في ذهنه المكانة الأولى، فأراد إبرازها في ذهن المتلقي، ولفت انتباهه إلى هذه الصفات، لتحمل في نفسه المكانة التي احتملتها عند الشاعر، وهذا يفهم من خلال السياق، فهو يسرع بهذه الصفات إلى المتلقي مختصراً الطريق بحذف المسند إليه، وبهذا يبقى تأثير هذه الصفات فينا ولا يزال بسهولة)³¹

و ما يتراءى للباحث أن هذا الحذف هو أيضاً من باب اغتنام فرصة إقبال الشاعر فكراً ليثبت في ذهنه تلك الصفات الجميلة، ليشده بها إلى ما يريد إيصاله للمتلقي. كما يمكن أن يكون علة هذا الحذف إلى شدة شوق الشاعر لمحبوبته حتى إذا ما غابت صورتها عن عينه أسرع باسترجاعها بصورة ذهنية، فهي لا تفارقها عوضاً.

وقريب من هذا المعنى قول المتنبي في سيف الدولة الحمداني:

³¹ البناء الفني في شعر كثير عزّة رسالة ماجستير - ميادة عبد القادر عمران العبيدي جامعة بغداد كلية التربية - دار ابن رشد ط 1426 هـ 2005 م ص 64

ألا ما لسيف الدولة اليوم غائباً فداؤه الوري أمضى السُّيُوفِ مَضَارِباً³²

أَمْضَى السُّيُوفِ: خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو أمضى. ويتجلى بكل وضوح أن الشاعر هنا في مقام استرضاء ممدوحه، بدفع غضبه عنه أو على الأقل بتقليل غضبه وسخطه عنه، أو انتشارال الغضب ليرضيه مما يمكن أن قاله فيه الوشاة، لذا فهو في حالة الدفاع عن النفس بواسطة القول، فهو لا يعطيه فرصة التفكير فصد السماح له، والعفو عنه، لذا هو يحاول مباغتته بذكر صفاته العظام، وتلك هي سجايا الطبيعية غير محدثة فيه، لذا أسرع الشاعر مباشرة دون أي تمهيد للدخول في موضوع الثناء ليزيل من غضبه شيئاً فشيئاً ليتنحى تدريجياً، وهذا يتطلب التقليل في الكلام مما أجبر الشاعر على حذف المسند إليها لبناء هذه المعاني المباشرة.

- ونستطيع القول أيضاً، والموضوع موضع غضب، بأن المقام لا يتسع لكثير من الكلام، فقد يغضب الممدوح لجر كلمة في غير موضعها، فيسرع إلى معاقبة الشاعر، لذلك وجب اغتنام فرصة الإقبال على ألا يكون إدباراً، فضلاً عن أن الشاعر لا يتكلم عن غائب فهو أمامه حتى يقول "هو".
و لقد كان المتنبي ذكياً يعرف كيف يوظف الكلم، فكل حذف عنده يحمل دلالة لا يعبر عنها بالثبوت، فعالج ممدوحه بأعظم صفة، وأجل وأحب خلة إليه، وهي كونه سيفاً ماضياً، فكأنه يقول لم تكن إساءتي هي الاستهانة بقدر ما هي تقدير ممضٍ سيفه لا يستهان به عوضاً، فكيف السبيل إلى ذلك؟

ومن لطف هذا الضرب قول بكر بن النطاح:

العَيْنُ تُبْدِي الْحُبَّ وَالْبُغْضَ وَتُظْهِرُ الْإِبْرَامَ وَالنَّقْضَ
دُرَّةً مَا أَنْصَفْتَنِي فِي الْهَوَى وَلَا رَحِمَتِ الْجَسَدَ الْمُنْضَى
عَظْمِي؟ وَلَا وَاللَّهِ يَا أَهْلَهَا لَا أَطْعَمُ الْبَارِدَ أَوْ تَرْضَى³³

إن حذف المسند إليه في البيت الثالث والتقدير: هي غضبي أعطى معاني لا تلمس بسهولة في إثبات المبتدأ، إذ لو أظهره لكان القصد محددًا، لأن المعنى بُني على المسند والمسند إليه، وهو مقصور بما تحمله صيغة التركيب أي القالب اللغوي الذي قيلت فيه، لكن الحذف أعطى مجالاً أوسع للدلالة.

³² ديوان المتنبي شرح أبي البقاء العكبري تحقيق مصطفى السقا و آخرون الطبعة الأخيرة شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده مصر 1391هـ 1971 م ج1/111

³³ دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تحقيق د. محمد التنجي ط 1 دار الكتاب العربي بيروت 1995 م ص: 126.

حذف معتمد الفائدة أي المسند إليه الذي هو محل انطلاق الجملة يؤدي معاني كثيرة يحددها وجوب أو جواز الحذف أو السياق أو الجملة أو الخطاب الذي قيل فيه كما أن محل الفائدة أي المسند يتعرض هو الآخر لبناء معان، فكلاهما يحذف لبناء دلالات لا تتم بأقصر أسلوب و أجزل لفظ كما في الحذف، و قد وظف ذلك القرآن الكريم ومن أفصح من الله قبيلاً؟ كما وظف ذلك الحديث النبوي الشريف و الشعر و النثر.

المصادر و المراجع:

- القرآن الكريم.
- أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت 745هـ) دار الفكر ط1.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود محمد محيي الدين بن محمد بن مصطفى العمادي (ت 982هـ) دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن أبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (538هـ - 616هـ) دار: الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1 1399 هـ - 1979 م.
- البرهان في علوم القرآن أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت 794هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعرفة بيروت 1391 هـ .
- البرهان في وجوه البيان أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن وهب الكاتب ، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي ، مطبعة المعاني ، بغداد 1378 هـ - 1967م.
- البناء الفني في شعر كثير عزة رسالة ماجستير . ميادة عبد القادر عمران العبيدي جامعة بغداد كلية التربية- دار ابن رشد ط 1426 هـ 2005 م .
- التسهيل لعلوم التنزيل محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي (ت 471هـ) دار الكتاب العربي بيروت ط4 - 1403هـ- 1983م.
- دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تحقيق د. محمد التنجي ط 1 دار الكتاب العربي بيروت 1995م.
- ديوان المتنبي شرح أبي البقاء العكبري تحقيق مصطفى السقا و آخرون الطبعة الأخيرة شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده مصر 1391هـ 1971م.
- شرح المفصل موفق الدين ابن يعيش النحوي (ت 643هـ) مطبعة عالم الكتب بيروت.
- صفوة التفاسير محمد علي الصابوني دار الجليل للنشر والطباعة والتوزيع بيروت ط 1 1995
- لباب النقول في أسباب النزول جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911هـ) ، دار إحياء العلوم بيروت. ط3 140هـ.
- مشكل إعراب القرآن مكي بن أبي طالب القسي مؤسسة الرسالة - بيروت.
- هكذا تكلم النص محمد بن عبد المطلب مطبعة دار الكتب العلمية ط1.